تفسير إبن كثير

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة ، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلئمو السلاح في حال همهم وغمهم ، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال تعالى في سورة الأنفال ، في قصة بدر : (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه [وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام]) [الأنفال : 11] .وقال [الإمام] أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو نعيم ووكيع عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبي رزين ، عن عبد الله بن مسعود قال : النعاس في القتال من الله ، وفي الصلاة من

الشيطان .قال البخاري : قال لي خليفة : حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، عن أبي طلحة ، رضي االله عنه ، قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مرارا ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه .هكذا رواه في المغازي معلقا . ورواه في كتاب التفسير مسندا عن شيبان ، عن قتادة ، عن أنس ، عن أبي طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد . قال : فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه .وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم ، من حديث حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ، عن أبي طلحة قال : رفعت رأسي يوم أحد ، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس . لفظ الترمذي ، وقال : حسن صحيح .ورواه النسائي أيضا ، عن محمد بن المثنى ، عن خالد بن الحارث ، عن أبي قتيبة ، عن ابن أبي عدي ، كلاهما عن حميد ، عن أنس قال : قال أبو طلحة : كنت فيمن ألقي عليه النعاس - الحديث .وهكذا روي عن الزبير وعبد الرحمن بن عوف ، رضي االله عنه .وقال البيهقي : أخبرنا أبو عبد االله الحافظ أخبرني أبو الحسين محمد بن يعقوب ، أخبرنا محمد بن إسحاق الثقفي ، حدثنا محمد بن عبد االله بن المبارك المخزومي ، حدثنا يونس بن

محمد ، حدثنا شيبان ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك ، أن أبا طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه ، قال : والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم ، أجبن قوم وأرعنه ، وأخذله للحق (يظنون باالله غير الحق ظن الجاهلية) كذبة ، أهل شك وريب في االله عز وجل .هكذا رواه بهذه الزيادة ، وكأنها من كلام قتادة ، رحمه االله ، وهو كما قال ، فإن االله عز وجل يقول : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم) يعني : أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق ، وهم الجازمون بأن االله سينصر رسوله وينجز له مأموله ، ولهذا قال : (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) يعني : لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف (يظنون باالله غير الحق ظن الجاهلية) كما قال في الآية الأخرى : (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا [وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا]) [الفتح : 12] وهكذا هؤلاء ، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة وأن الإسلام قد باد وأهله ، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة .ثم أخبر تعالى عنهم

أنهم (يقولون) في تلك الحال : (هل لنا من الأمر من شيء) قال االله تعالى : (قل إن الأمر كله الله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك) ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله : (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) أي : يسرون هذه المقالة عن رسول االله صلى االله عليه وسلم .قال [محمد] بن إسحاق بن يسار : فحدثني يحيى بن عباد بن عبد االله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عبد االله بن الزبير قال : قال الزبير : لقد رأيتني مع رسول االله صلى االله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا ، أرسل االله علينا النوم ، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره ، قال : فواالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ، ما أسمعه إلا كالحلم ، [يقول] (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل االله [تعالى] (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) لقول معتب . رواه ابن أبي حاتم .قال االله تعالى : (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) أي : هذا قدر مقدر من االله عز وجل ، وحكم حتم لا يحاد عنه ، ولا مناص منه .وقوله : (وليبتلي االله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم) أي يختبركم بما جرى عليكم ، وليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال

والأفعال ، (والله عليم بذات الصدور) أي : بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر .